فقه/ علم الميقات: وجهات نظر

بقلم: د. أحمد قريق احسين

المقدمة:

لا يخفى على أي مسلم الأهمية التي أولتها الشريعة الإسلامية للوقت وضبطه وضرورة إحسان التصرف فيه. فالمسلم مسؤول عما أفنى فيه حياته الدنيا وهو محاسب لا محالة عن الوقت الذي يمضيه فيما لا ينفعه وما سيؤول عليه بالوبال والندم حين لا ينفع الندم.

كما اختار الشارع للعبادات مواقيت مكانية وزمانية تؤدى فيها دون غيرها. كالحج الذي فرض في بيت الله الحرام والصلاة التي من شروط صحتها دخول الوقت. قال تعالى:﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (هود114).وفي سورة الإسراء قوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (الإسراء 78).

وفي سورة طه قوله: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآئِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ (طه130).

وبالطبع بعد أن فرضت الصلاة كان لابد أن يوضح الشارع بما لم يبق معه أي لبس أو ابهام مواقيت هذه الصلوات، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام. عن جابر بن عبد لله، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جاءَهُ جبريلُ - عليهِ السَّلامُ - فقالَ: قُمْ فَصَلِّه. فصلَّى الظُّهرَ حينَ زالَتِ الشَّمسُ. ثمّ جاءَهُ العصرَ، فقال: قم فصلِّه. فصلَّى العصرَ حين صارَ ظلُّ

كلّ شيءٍ مثلَه. ثمّ جاءَهُ المغربَ، فقال: قم فصلِّه. فصلّى المغربَ حين وجبتِ الشمسُ (غربت وسقطت). ثمَّ جاءه العشاءَ، فقال: قم فصلِّه. فصلّى العشاءَ حين غاب الشفقُ. ثم جاءَه الفجرَ حين برقَ الفجرُ أو قال: سطعَ الفجرُ. ثم جاءه من الغدِ للظهرِ، فقال: قم فصلِّه. فصلّى الظهرَ حين صار ظلُّ كل شيءٍ مثله. ثمّ جاءه العصرَ، فقال: قم فصلِّه. فصلَّى العصرَ حين صار ظلُّ كل شيءٍ مثلَيه. ثمّ جاءه المغربَ وقتاً واحداً لميزه. ثمَّ جاءه العشاءَ حين ذهب نصف اللّيلِ أو ثلث اللّيل، فصلَّى العشاءَ. ثم جاءه حين أسفرَ جدًّا، فقال: قم فصلَّه. فصلَّى الفجرَ. ثم قال: «ما بين هذين الوقتين وقتٌ». رواه أحمد والنّسائي والتّرمذيّ.

أما ركن الصيام، ثالث أركان الإسلام، فقد اختير له شهر رمضان من بين الشهور الاثنى عشر المعروفة وجعلت رؤية الهلال بعد المغرب هي العلامة على دخول الشهر فيجب بذلك الصوم ولا يجوز بعده الإفطار ومن فعل ذلك من دون عذر وجب عليه القضاء والكفارة. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾(البقرة من الآية 188).

وقد تكوّن في هذا المجال للمسلمين رصيد من النصوص الشرعية التي توضح وتحدد بدايات الوقت ونهاياته لكل شعيرة من هذه الشعائر. وجاء فيها لهذا الغرض عدد من المفاهيم التي تعبر عن ظواهر طبيعية جعلت هي العلامات الفارقة لدخول الوقت أو خروجه. فقولنا مثلا صلاة المغرب يكون عند مغرب الشمس مساء ما هو إلا تعبير عن ظاهرة الغروب أو الأفول التي تعرفها الشمس في حركتها الظاهرية حول الأرض وماهي إلا اختفاء قرص الشمس في الأفق الغربي عند نهاية النهار، إلى غير ذلك من المفاهيم.

وقد عرفت الإنسانية خلال القرنين الأخيرين تطورا متسارعا أدى في نهاية المطاف إلى فصل الانسان عن الطبيعة

بصفة تكاد تكون تامة. ففي بعض الحواضر العالمية الكبرى يولد الطفل وينشأ وسط عمارات من الاسمنت المسلح لا يعرف غيرها ولا يعرف الطيور والحيوانات الأليفة منها إلا ما يراه على شاشات التلفاز أو صور الانترنت. وقد أدى هذا الانفصال إلى تراجع الثقافة الفلكية لدى الانسان العادي وبهذا أصبح يجهل العلامات التي جاءت في الأحاديث النبوية الشريفة والآيات الكريمة.

أما المختصون من الفلكيين فهم بدورهم يعانون من مشاكل من نوع آخر تسبب فيها التطور الصناعي. فقد ترتب عن انتشار الانارة الليلية ما يسمى بالتلوث الضوئي وهو إحدى آفات العصر لما ينجر عنه من مشاكل على حياة الكائنات الحية أو على صحة الانسان ناهيك عن النشاط العلمي للفلكيين المعتنين بالرصد.

وعليه وبناء على ما سبق فللاعتبارات السابقة لم يعد على المسلم أن يُعمل الاجتهاد في تحديد مواقيت العبادات فقد تكفلت بذلك مؤسسات أو هيئات عمومية تعمل على إنشاء الرزنامات وجداول الأوقات. وهي إذ تقوم بذلك تبني عملها على مراحل أساسية ثلاث: رصد وجمع النصوص الشرعية الخاصة بالموضوع، ترجمة الكلمات المفتاحية المعبرة عن ظواهر طبيعية وترجمتها إلى مفاهيم فلكية، وأخيرا ترجمة المفاهيم الفلكية إلى معادلات رياضية تعطي في الأخير مجموعة من الأرقام التي تعبر عن تواريخ وأوقات مضبوطة باليوم والشهر والساعة والدقيقة.

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يستمر الاختلاف بين مختلف الدول التي تتخذ الديانة الإسلامية ديانة رسمية لها في تحديد بداية شهر رمضان مثلا؟ ولماذا يظهر من حين لآخر أصوات تشكك في صحة مواقيت الرزنامة الرسمية ؟ ولماذا قد تصل الأمور إلى حد التشكيك في صحة الحسابات الفلكية؟نحاول في هذه

الورقة أن نحدد بعض النقائص التي إن تم تداركها فسوف نصل دون شك إلى نتيجة سريعة.

تغييب علم الميقات عن المناهج التعليمية:

نعتقد أن أول سبب في كل هذه الأمور هو تغييب مادة علم الميقات عن المناهج التعليمية وبرامج الدراسات في تخصصات الشريعة الإسلامية، وقد خسر بذلك المسلمون الكثير. فعلم الميقات من أعرق العلوم في الحضارة الإسلامية وقد أنتج وأبدع فيه علماء الإسلام أيما ابداع وتركوا فيه المئات من المؤلفات التي لاتزال في أغلبها مخطوطة والعشرات من الآلات كالإسطرلاباتوالأرباع والمزاول التي تركوا منها المئات من العينات التي تزخر بها متاحف العلوم وبعض المساجد التاريخية ...الخ. وما اسم سبط المارديني وابن البنا المراكشي وابن الشاطر إلا عينات لما يجب أن يكون عليه الفقيه المسلم من إلمام بمثل هذه العلوم والفنون التي تعينه دون شك في آداء أعماله.

علم الفلك ليس تنجيما:

أما السبب الثاني، فيما يبدو فهو نوع من الخلط المتعمد بين علم الفلك وأحكام النجوم، وإن كان بالإمكان إيجاد بعض الاعذار له في الزمن الفائت فلا يمكن أن يعذر الفقيه المسلم إن تلفظ به في زمننا الحاضر. فبداية لنقل أن ابن خلدون في مقدمته يفصل كل الفصل بين علم الفلك كعلم رياضي وبين ما يسميه في وقته بأحكام النجوم وكيف أن هذا الأخير ليس بعلم. أما في وقتنا الحالي فيكفي الرجوع لتعريف علم الفلك والتنجيم في موسوعة الفيزياء الفلكية ليتضح أن الشيئين منفصلان تماما ولا يمكن الخلط بينهما. فبينما علم الفلك علم رصدي حسابي مبني على متابعة الرصد وتكراره وعلى عدد من المعادلات الرياضية الواضحة المبنى والمعنى، يبقى التنجيم مبني على عدد من التصورات غير المضبوطة وغير الخاضعة للكتابة الرياضية وأساسه هو التأويل الذاتي.

أما الرزنامات التي تعطي المواقيت وتواريخ دخول الشهور مسبقا فهي ليست تنجيما ولا تمت باي صلة للتنبؤات بل هي مبنية على القواعد التي تحدثنا عنها ويمكن لأي إنسان أن يعيد الحصول عليها إن عمل بنفس المعادلات وبنفس الفرضيات.

القاعدة الفقهية:

كما أنه يمكن أن نلاحظ أن الكثير ممن يناقش هذا الموضوع يؤسس كلامه على أقوال عدد من الفقهاء المشهورين منهم وغير المشهورين من المنتمين إلى مذاهب مختلفة، مما قد يولّد بعض التشويش في الفهم فالمدارس الفقهية الإسلامية ما هي إلا منظومات فكرية متكاملة ومتناسقة لابد من البقاء داخلها والالتزام بها كمنظومات، ذات أنساق تفكير ومقاربات خاصة،لها تصورها الخاص ومبناها العام للشريعة الإسلامية.

وأخيرا، ما هذه الأسطر إلا توطئة لسلسلة مقالات أكثر تفصيلا نرجو من الله أن يوفقنا لإخراجها والحمد لله رب العالمين.